

دراسة الخطاب التداولي عند الجاحظ في ضوء نظرية الاتصال والتبليغ

STUDY OF THE DELIBERATIVE DISCOURSE AT AL-JAHIZ IN THE LIGHT OF THE THEORY OF COMMUNICATION AND COMMUNICATION

معزوز خيرة*

المركز الجامعي أحمد بن يحيى الونشريسي تيسمسيلت (الجزائر) maazouz130@gmail.com

تاريخ النشر 2021/06/01

تاريخ القبول 2020/12/01 تاريخ الارسال 2019/05/06

ملخص:

مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين عرف النشاط اللغوي ظهور نظريات لسانية حديثة غربية المنشأ، تعالج اللغة وقضاياها، حيث ظهرت لسانيات الكلام التي تتجاوز النظرة الفردية إلى النظرة التداولية التي تجعل من النص خطابا تواصلياً حاملة كل المفاهيم التي تشرح شروط أدائه انطلاقاً مما يعرضه الدرس العربي البلاغي ونظرية التبليغ والتواصل.

وتحديد الموقع المناسب لإسهامات الغرب في ذلك، خاصة وأن تصوراتهم أصيلة هادفة، وتعرف أن الجاحظ كان أديباً ومبدعاً بليغاً ومبلغاً، حيث درس الخطاب وشروط أدائه وتبليغه للمتلقى، فكان حديثه عن الكلام أو الحدث الكلامي أو القول ومقتضى الحال والفائدة الكلامية أو ما يقصد به هو مقابل لمصطلح التداولية pragmatique بالمفهوم الحديث والتي تنطلق من الخصائص الشكلية لعناصر الخطاب أو الكلام من (أفعال-بنى حجاجية- حذف- تكرار..) فهي تركز على الجانب الاتصالي والوظيفي للكلام، وهذا لم يغفله الجاحظ في كتاباته ودراساته اللغوية والأدبية.

الكلمات المفتاحية: اللغة- الخطاب- التداولية- الاتصال- التبليغ- التواصل- الكلام- السياق- الحجاج.

Abstract:

By the end of the 19th century and the beginning of the twentieth century, linguistic activity was characterized by the emergence of modern Western linguistic theories, dealing with the language and its issues. The linguistics that transcended the individual view emerged in the deliberative view that makes the text a communicative discourse bearing all the concepts that explain the conditions of its performance. Arab rhetoric and the theory of communication and communication. And to determine the appropriate location for the contributions of the West in this, especially since their perceptions are authentic and purposeful, and know that Al-Jahiz was a writer and a creative and eloquent and amount, where he studied the speech and the conditions of its performance and communication to the recipient, was talking about speech or speech or speech and the case and the benefit of words or what is meant is the equivalent of the term Pragmatique in the modern concept, which stems from the formal characteristics of the elements of speech or speech from (actions - structures of the pilgrims- delete the repetition ..) It focuses on the communicative and functional aspect of the speech, and this is not overlooked by Al-Jahiz in his writings and studies of language and literature.

Keywords: language - discourse - deliberation - communication - reporting - communication - speech - context - pilgrims.

دراسة الخطاب التداولي عند الجاحظ في ضوء نظرية الاتصال والتبليغ معزوز خيرة

1. مقدمة:

يندرج تناولنا لهذا الموضوع في إطار تطبيق نظرية الاتصال المعاصرة على أفعال الكلام أو التلفظ ضمن آليات تداولية، عرفها الخطاب اللساني العربي القديم منه والحديث، انطلاقاً من تصوّر ابستمولوجي مشحون بأفكار ومبادئ وتصورات، ما هي إلا امتداد لحضارات قديمة كالهند واليونان والرومان وغيرها، والعرب كان لهم الحظ في تطور المعرفة الإنسانية على يد علماء اللغة والفلاسفة والأصول، والذين ساهموا في تمديد الجسر الواصل بين التراث والحداثة ببناء التصور العربي للغة باعتباره نشاطاً تتحكم فيه مجموعة من العناصر اللغوية وغير اللغوية، تتقارب مع التصورات الغربية الحديثة للغة، باعتبارها نشاطاً تداولياً *pragmatique*، وهذا ما يجعلنا نتساءل عن مساهمة أحد علماء القرن الثالث الهجري، وهو الجاحظ (ت255هـ) في بناء تصوّر عربي يقارب النظريات الحديثة والمعاصرة، أو بالأحرى كيف يمكن للجاحظ أن يمارس التداولية في خطابه، من يتكلّم؟ ومن يقع عليه الكلام؟ وماذا يفعل حينما يتكلّم؟ وكيف يبلغ ويوصل كلامه؟

لقد كان انشغال شعوب العالم باللغة باعتبارها لبّ التواصل وجوهره، فيها كان الماضي والحاضر والمستقبل، فساهمت بشقيها المنطوق والمكتوب في الإبلاغ والتفاهم بين الأفراد، وكان للعرب حظ في تناولهم للغة العربية بكلّ مستوياتها الصّرفية والدلالية والتركيبية، فألفوا كتباً قيمة يزخر بها التراث الأصيل، ممّا سعى الباحثون المعاصرون إلى الكشف عن هذا التراث، وذلك بتطبيق أحدث المناهج في التحليل والفهم وإحاطه بالحداثة والمعاصرة أملاً في تصورات عربية أصيلة.

وإذا كان كذلك؛ فإنّ النظريات اللسانية ونظريات الاتصال قد تبلورت عند الغرب، فيحق لأي باحث أن يتساءل: أين نصيب العرب من النظريات اللسانية التداولية؟ وبصيغة أخرى أين يتبلور الفكر التداولي في التراث العربي؟ ومن جهة أخرى هل يوجد الاتصال في التراث العربي؟ وقد وقع اختياري على الجاحظ الذي يعدّ رائداً في مجال اللغة والأدب والتقد، ولأنّه أيضاً تناول مواضيع لها علاقة بالتداولية وبالاتصال كالبلاغة، وكالبيان وعلم الكلام والخطابة...

وعليه: فأين يلتقي الجاحظ مع قضايا اللسانيات التداولية بحسب ارتباطها بالمتكلّم أو المخاطب أو بالخطاب في ذاته ضمن التبليغ والتواصل؟

1. مفهوم التداولية: تعتبر اللغة الحامل لكل الأنظمة اللغوية وغير اللغوية، التي تضمن التواصل والتبليغ عن طريق الاستعمال أو الممارسة؟ وهي قادرة بذلك على الأخذ بمختلف الخطابات الصادرة عن الإنسان، وهذا ما أقرّ به فيتغنشتاين على اعتبار أنّها "ليست وسيلة للفهم أو تمثيلاً للعالم، بقدر ما هي وسيلة تأثير في الآخرين، لارتباطها بالمواقف الحساسة"¹.

وعُرف بعدها أوستين بتطوره للتداولية من خلال كتابه "كيف ننجز أفعالا بالألفاظ؟"² وتتجاوز اللغة في مفهومه وظيفة الاتصال إلى وظيفة التأثير وتغيير السلوك الإنساني من خلال مواقف كلّية³.

ومن منظور سيميائي يتقدم بيرس ليوسّع في الدّرس التّداولي انطلاقاً من العلامة التي تتعدّى المجال اللّغوي نحو الرّمز والإشارة والأيقونة، معتبراً أنّ الإنسان في حده قوله: "علامة وحين نفكر علامة"⁴. معتمداً في قراءته للعلامة على آلية التّأويل حيث يميّز بين الدّلالة على أنّها دراسة المؤولات، وأنّ التّداولية تهتم ببقايا هذه المؤولات ورواسبها⁵.

وفي نفس السّياق السّيميائي يحدد شارل موريس Charles Morris التّداولية ويحصرها ضمن مجال السّيميائية، في إطار دراسة العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات، ضمن نسق تركيبّي وتفاعل دلالي، وهو مفهوم يجعل العلامة تتجاوز مجالها اللّساني إلى المجال السّيميائي، ومجالها الإنساني إلى مجالات عامة، أي أنّ اللّغة ذات بعد تداولي على أساس أنّها نشاط تواصلي ذا طبيعة اجتماعية⁶.

فالتّداولية مجالها أوسع وتتداخل مع علوم أخرى: "إنّه من الصّعب الحديث عن التّداولية، لأنّ هذا التّعبير يغطيه العديد من التّيارات من علوم مختلفة، تتقاسم عدداً من الأفكار، واللّسانيون ليسوا وحدهم المعنيين بالتّداولية، بل تعني الكثير من علماء الاجتماع إلى المناطق، وتتجاوز اهتماماتها بمجموع الأبحاث المتعلقة بالمعنى والتّواصل، وتطغى على موضوع الخطاب لتصبح نظرية عامة للنشاط الإنساني"⁷.

وعليه فالتّداولية أخذت منحرجاً واسعاً لأنّها لم تقتصر على اللّسانيات، واستعمالاتها، وإنّما تجاوزت مجالات أخرى، معتمدة على الاستعمال والممارسة ضمن الحقل التواصلي والمقامي.

وقد تعددت التّسميات العربية للمصطلح الأجنبي pragmatique فقيل: البراغماتية، والبراغماتيك، البرجماتية، والبراغماتيك، والتّداولية، والمقامية والوظيفية والسياقية والذرائعية والتّفعية، ولكن مصطلح التّداولية صار مهيمناً على الباحثين والدّارسين⁸.

يعود مصطلح التّداولية إلى مادة "دول" في المعاجم العربية نحو مقاييس اللّغة لابن فارس، ووردت على أصلين: "أحدهما يدل على نحول شيء من مكان إلى آخر، والآخر يدل على ضعف واسترخاء، فقال أهل اللّغة: اندال القوم إذا تحوّلوا من مكان إلى مكان، ومن هذا الباب تداول القوم الشّيء بينهم: إذا صار من بعضهم إلى بعض، والدّولة والدّولة لغتان (...). وإنّما سميا بذلك من قياس الباب لأنّه أمر يتداولونه فيتحوّل من هذا إلى ذاك ومن ذاك إلى هذا"⁹.

وتفيد معنى دول التّناقل والتّحول مصداقاً لقوله تعالى: { وَتِلْكَ الْأَيّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ } سورة البقرة، الآية 188.

بمعنى تلك الأيّام نصرّفها لبعضنا البعض أي يوم لك ويوم عليك.

أما اصطلاحاً: فمصطلح pragmatique والذي يعود إلى شارل موريس Charles Morris في سنة 1938، في كتابه أسس نظرية العلامات الذي يتهم بدراسة العلاقة بين العلامات وبين مستعمليها أي مفسريها وتحديد ما يترتب عن هذه العلامات.

دراسة الخطاب التداولي عند الجاحظ في ضوء نظرية الاتصال والتبليغ

معزوز خيرة

ويعرفها فرانسواز ريكاتاري (Franois Recartait) على "أنها بحث يهتم بدراسة استعمال اللغة داخل الخطاب وإبراز السمات التي تميزه"¹⁰.

فالتداولية "وصف لكل ما كان مظهرًا من مظاهر التواصل والتفاعل بين صانعي التراث من عامة الناس وخاصتهم"¹¹.

ونظرًا لامتداد التداولية وتشعبها قدّم هانسون سنة 1974 تصورًا متميزًا:

1.1 تداولية الدرجة الأولى: وتعتمد الاستعمال اللغوي في إطار السياق أي تلك المعطيات الزمانية والمكانية المحيطة بالمتكلم أو المخاطب، وتعكسها أعمال دارسي الإشارة والرمز نحو: بيرس، روسل، كودمان... وبعض إشارات (بنفس) في البعد الإشاري للزمن¹².

1.2 تداولية الدرجة الثانية: تهتم بالجانب الإبلاغي والتواصل للخطاب أي دراسة حجم ما يبلغه المتكلم من دلالات في الملفوظ، الذي يؤدي ذلك، ومدى نجاحه أو إخفاقه¹³.

ويدرج ضمن هذه التداولية ما جاء به جريس "نحو الخطاب": "نشاط مقنن يخضع إلى قواعد، والمشاركون في الخطاب يحترمون مبدأ التعاون"¹⁴.

1.3 تداولية الدرجة الثالثة: وتتعلق بنظرية أفعال الكلام مما قدّمه أو ستين، وطوره سورل ولا يتحدد الفعل الكلامي إلا من خلال السياق الذي يتكفل بتحديد جدية التلفظ، أو إنجاز فعل معين¹⁵ فالتداولية موجودة بحكم اللغة واستعمالاتها ضمن دائرة التواصل التي تتمثل في المرسل أو المتكلم أو المخاطب، والخطاب موجه نحو المخاطب أو المتلقي ضمن الظروف المحيطة بعملية التلفظ، أو إصدار الخطاب.

ولعلّ الجاحظ في القرن الثالث الهجري، كان قد طرح مباحث التداولية في خطابه حيث كان واقعيًا معبرًا عن البيئة، والمقام الذي اقتضاه كلّ حديث وفعل وقول.

02. الحدث الكلامي عند الجاحظ:

مصطلح الكلام ورد بمعان مختلفة، فاستخدمه سيبويه (ت180) بمعنى الحديث، وبمعنى النثر وبمعنى الجملة أيضًا.

فلغة: "يعني ذلك اللفظ المركب الدال على معنى بالوضع والاصطلاح"¹⁶، وهو تلك الجمل المعبرة عن الفكر، أو المعاني القائمة بالنفس التي يعبر عنها بألفاظ مسموعة أو مكتوبة، والإنسان هو الذي يستطيع أن يبين عن ذاته بالكلام أما غيره فإنه لا يستطيع ذلك¹⁷.

وما يميّز هذه الظاهرة أنّها تستدعي كلمات ورموز تترجم إلى أصوات فعلية، يشترك فيها كلّ من المتكلم والسماع¹⁸. وهي حدث لا يستغرق أكثر من لحظات¹⁹.

فالحدث الكلامي تعبير عن الفكر، إما بالتحدث أو الكتابة، ومن ثمّ يعد اتصالًا يستقطب طرفين المتحدث والمستقبل ضمن الإرسال والاستقبال، تأكيدًا على وجوده ورغبة في التأثير على المرسل إليه²⁰.

وإذا عدنا إلى بنيته الصّوتية نجد أنّه يتألف من أصوات، وهذه الأخيرة تؤلف أصغر وحدة ذات معنى، وهي الكلمة التي تكون بدورها تراكيب مختلفة من جمل وعبارات ضمن نظام لغوي متناسق يحافظ على بنية الحدث وانسجامه للتأثير على المرسل إليه²¹

فالكلام من الكلمة، والكلمة أصغر الوحدات الكلامية لها معنى وتغييرها يؤدي إلى تغيير مضمون التركيب أو الجملة التي تحويها²².

ومن ثمّ لها أثر في عملية الإبلاغ، ففهمها وإدراكها من قبل المتكلم يعني سيرورة العملية ويكون كذلك وفقاً على المرسل إليه، ويعني ذلك أنّه حتّى تتوضح وتبين عن معناها عليها أن تتموقع ضمن سياق Contexte لأنّه يساهم في إدراك المعاني وتباينها²³.

ولم يختلف الجاحظ عن هذا وإتّما تكلم في شتى المواضيع، فذاع صيته وعظم شأنه، وراح ينظر للحدث أو الكلام البشري، فتحدّث عن اللّغة العربية الفصحى، وعن نظامها الصّوتي والتركيبى، كما أنّه درسها من جهة بيانها وفصاحتها وبلاغتها وما يترتب عنها من عيوب وأسباب تبليغها ووصولها إلى الآخرين، وقد ذكر ذلك كثيراً في مؤلفه البيان والتبيين، والحيوان وحتّى الرسائل...

لقد تكلم الجاحظ عن الخطبة والخطباء ووضعهم وفضّل بعضهم، وذكر مآثر الكلم من شعر ونثر، وذكر ما قالوا في مديح اللسان بالشعر الموروث المحذوف، كما أنّه تناول اللّغة الفصيحة وأسباب تفوقها وكذا لغة العوام، وفي المقابل لغة الخواص من النّاس وغيرها من المواضيع المثيرة كالخطب المشهورة، والتّوارد والخواطر وقصص المشهورة حول البخلاء، ولم يترك مجالاً إلّا وطرقه راميّاً إلى البيان والتبيين وهو الهدف الأسمى من الحدث الكلامي.

ولا ريب في أنّ الجاحظ يستعمل البيان كمرادف للبلاغة حيث يدلّ على بلاغة التعبير قولاً وكتابة، وبالأخص بلاغة الكلمة التي اصطلاح عليها مجازاً وهو نقيض للعي الذي يعني عدم القدرة على الإفصاح وهنا أيضاً مرادفاً للفصاحة²⁴.

فالبيان له علاقة بالمتكلم الذي يتحمل مهمة الإفهام والتبيين، أو كما اصطلاح عليه ميشال عاصي "بالتبيين" والذي يركز على السّماع وحالته البيانية.

وعليه أصبح المصطلحان يشيران إلى البلاغة والوضوح عند المتكلم والسماع. وبما أنّ الحدث الكلامي يتعلق بالكلام فقد ورد عنده بمعنى القول²⁵ أو يأتي مسبوقاً بلفظة صناعة الكلام مع مفهوم اختيار الكلام أو مصحوبة بلفظة علم: علم الكلام²⁶.

فالقول: يعني الإنجاز الفعلي الصّوتي عن طريق النطق باللسان، إذ يقول: "إنّك لا تستطيع العبارة عن حاجاتك والإبانة عن مآربك إلّا باللسان"²⁷.

أمّا صناعة الكلام تتعلق بأصحاب الصّناعة والتّكلف، ويقصد بها حسن بناء اللفظ والمعنى، واثتلافهما مع العروض والقوافي²⁸، وخاصة عندما تحدث عن الشّعر عرضاً حيث رأى أنّ المعاني متوفرة بعكس الألفاظ التي هي قليلة، وقد تكون الألفاظ كثيرة تعبّر عن معان قليلة، والشّأن في ذلك في إقامة الوزن واختيار اللفظ وسهولة

دراسة الخطاب التداولي عند الجاحظ في ضوء نظرية الاتصال والتبليغ

معزوز خيرة

المخرج، وجودة السبك وهذه العناصر لها دور في عملية البناء اللغوي، أو نظم الكلام والذي يعني به الإنجاز اللغوي وقد اشترط فيه ما يلي²⁹:

- إقامة الوزن كما هو في الشعر حيث يكسب الكلام تناسقاً وانسجاماً ويضفي عليه طابع الجمالية.
- اختيار اللفظ وهو أنّ المتكلم يختار الألفاظ المناسبة لموضوعه في قوله: "وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني"³⁰.

وهو عند اللسانيين Axepradigmatique إذ يتمكن المرسل من انتقاء الألفاظ المناسبة لمعانيه، ممّا يسمح له بتأليف رسالة ذات معان هادفة.

- سهولة المخرج: ويقصد به أن تكون الكلمات متجانسة غير متنافرة يسهل على اللسان نطقها ودعى إليها حين قال بتجانس الحروف وسهولة المخارج، فالأصوات اللغوية تتأثر ببعضها البعض في النطق، فتتغير مخارج بعض الأصوات لتتفق مع مخارج أصوات أخرى، ومن ثمّ يحدث التوافق والانسجام ويسهل النطق³¹.
ويذهب الجاحظ إلى أنّ تنافر الحروف وعدم تجاورها يؤثر على التواصل، فيعيق العملية ويؤدي ذلك إلى الاستكراه والعكس صحيح.

- جودة السبك: ويعني به حسن التأليف والتركيب وانسجام العناصر اللغوية فيما بينها، تشكل صورة متكاملة ومعنى تاماً.

وتحدث أيضاً عن هذه العملية (عملية الكلام) من جراء تبليغ الرسالة الدينية، إذ نزل القرآن الكريم عربياً مبيناً على سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- فقام بنشر الدعوة الرّثابة عن طريق الكلام الذي يعتبر الوسيلة الأولى والمباشرة في عملية التبليغ والإيصال، لأنّ الرسالة الإلهية كانت قد صوبت نحوه وخاصة الفترة التي كانت تفتقر إلى أبسط وسائل الاتصال لقوله "وبالكلام أرسل الله أنبياءه لا بالصّمت"³².
ولا يعني أنّه أهمل الصّمت وإنّما نجده يجعل منه قيمة بلاغية قد تفوق في بعض المواضع والمقامات القيمة الكلامية خاصّة عند تكلف المتكلم وإسهابه وخاصة المتزايد³³.

وعلى هذا الأساس فقد نظر إلى الفعل الكلامي من جرّاء المفهوم الديني، أي إبلاغ الرّسالة الدينية التي نزلت على سيدنا محمد -عليه الصّلاة والسّلام-، ففهمها وتفهمها على السّياق الذي شاءت حكمة الله أن تكون فيه، ثمّ تبينها وتبليغها بتحفظ وأمانة وعلى أحسن صورة إلى المخاطب أو المتلقي، حتّى ينتهي بدوره إلى فهمها، فيصير متفهماً في المرحلة الأولى ومفهماً في المرحلة الثانية، وعافاً لألفاظ ومعاني قومه، ومقتدراً على الإقناع والتأثير³⁴.

الرسالة الدينية (القرآن) ← المتفهم والمفهم (الرّسول عليه الصّلاة والسّلام) ← المخاطب.

ولما كان عليه الصلّاة والسّلام يكتسب آلية الإقناع والتأثير، فقد نجح في تبليغ رسالته وأداء مهمته السّامية، وكان على إثرها انبهار البشر أمام كلام الله المعجز والمنزه عن الخطأ، بمعان دقيقة وألفاظ سامية، ونظم ليس كبقاى النّظم وخصائص صادفوها في سياق لفظه أعجزت الجمهور³⁵.

وأشار الجاحظ أنّ الحدث الكلامي (الفعل اللّغوي) نفعه عام وفضيلته أبين والحاجة إليه أمس³⁶. مهما كان الحيّز الذي يشغله، والسّياق الذي يرد فيه بغض النّظر عن مقاصده وغاياته ويقوم على نفس عناصر البيان اللّغوي: المتكلّم والسّامع والكلام وما جاء به لا ينقص من قيمته خاصة في الحقبة المتقدّمة من القرن العشرين، وفي نطاق ما أطلقه عليه نظرية التّواصل³⁷ التي تعني بكلّ أشكال الخطاب مهما كانت الوسيلة والقناة المختارة.

3. عناصر الحدث الكلامي:

1.3 الأداء اللّغوي: Performance

ورد هذا المصطلح عند علماء العرب القدامى، وتّضح أكثر مع النّظرية التّحويلية والتّوليدية لأفام نوام تشومسكي A.Noam chomsky الذي رأى أنّ اللّغات تتحدد بشكليها المنطوق والمكتوب، وأنّ اللّغة خلاقة "Créative" بطبيعتها، إذ أنّ متكلّم يستطيع أن ينطق جملا لم يسبق أن نطقها أحد من قبل، ويستطيع أن يفهم جملا لم يسبق أن سمعها من قبل³⁸.

ومن هنا يتّوجه إلى المتكلّم السّامع المثالي، الذي ينتمي إلى مجتمع لغوي متجانس، يعرف لغته معرفة كاملة، ويؤكد أنّ هناك أمرين ضروريين لفهم اللّغة الإنسانيّة، فالأول يتمثّل في الأداء اللّغوي الفعلي، الذي يمثل البنية السّطحية للكلام الإنساني، وهو الاستعمال الفعلي والحقيقي للّغة.

وما يجب أن تراعيه في الأداء الأسلوب والسّياق أو الموقف الذي يرد فيه، لأنّ المعنى يكمن في الأسلوب السّليم والحال الذي يكون فيه، فعند اختيارنا للكلمات فإنّنا في الوقت نفسه نختار المستمعين إلينا ولعلّ هذا ما بدا لنا في تراننا، فأبو عثمان كان على أفق واسع من الثقافة والمعرفة في إدراكه وتفهمه الجيّد للأداء اللّغوي، ويظهر أنّه ليس بفصاحة ولا بلاغة ولا أناقة لفظية، حين حديثه عن البلغاء والفصحاء ومع ذلك فإنّه يدخل في الموقف أو السّياق الذي يستدعيه، ويكون له مناسبا حيث السّخيف للسّخيف من المعاني، وقد يحتاج إليه في بعض المواضع³⁹.

ومن ثمّ، فمستويات الأداء تخضع للحدث والموقف كالنّادرة الباردة جدّا قد تكون أحسن وأسرع إلى الآذان من النّادرة الحارّة جدّا، وهناك أداء لا تفهم منه شيئا ولا يؤدي إلى أي غرض أو مقصد.

وحثّى يكون الأداء على مستوى من الفهم والإفهام لا بدّ للمتحدث أن يلتزم بمخارج الأصوات أي النّطق السّليم، وكذا احترام مواقع الكلمات، ويعني أن تلتزم بقواعد اللّغة أو النّظام الذي وردت فيه وإثرها تكون قد خرجت بها المخرج السّليم وبلغت بها البلوغ التّام، أمّا إن غيّرتها وألحنت فيها فإنّك قصّرت في الأداء، وابتعدت

دراسة الخطاب التداولي عند الجاحظ في ضوء نظرية الاتصال والتبليغ

معزوز خيرة

عن القصد المطلوب، أما إذا سمعت نادرة من نوادر العوام فعليك أن تؤديها كما هي بلغة العوام بعيداً عن النظام والقواعد، فإنك تستمتع بها وتخرجها على أحسن صورة، والعكس يفسد الإمتاع بها⁴⁰.

والأداء اللغوي هو طريقة في الإلقاء، تخضع للموضوع والأسلوب والسياق الاجتماعي والثقافي، وكذا الإطار الخطابي، وكلها عوامل خارجة عن نطاق اللغة لكنها تساهم في البيان والاتصال.

فالأداء أو الحدث الكلامي يتطلب حسن الوضع في النظم إذ تجاور كل لفظة من جنسها، وأن تألف المعاني بالألفاظ وتتبادل وتتناسب حتى يكون الإفهام والبيان.

فالمؤدي بطبيعة الحال يؤثر ويتأثر بالآخرين باختلاف مستوياتهم وثقافتهم.

2.3 التأثير والتأثير : Ressentir et influence

إن مفهوم التأثير عند علماء الاتصال بلوغ الهدف، ونجاح الرسالة، أي تأثير النص على الجمهور المتلقي، ومن ثم يتأثر المتلقي ويؤثر أيضاً في الآخر.

وعلى هذا الأساس فإن اختيار الفرد لأدائه اللغوي يكون بالضرورة نابعاً من تأثيره بصيغ لغوية يوظفها هذا المجتمع، وبقدرته الأدائية فإنه يؤثر ويتأثر بالآخرين باختلاف ثقافتهم.

فاختيار الفرد للحدث الكلامي يكون بالضرورة نابعاً من تأثيره بصيغ لغوية يوظفها المجتمع، وبقدرته الحجاجية فإنه يؤثر في شريحته الاجتماعية، وقد يمتد إلى شرائح أخرى، ويحصل نتيجة لإمكانات متاحة، كاستغلال مفردات لغوية ضمن سياق معين لأجل تحقيق غرض بعينه، وترى رجاء عيد أنه إذا كنا في مجال النص الشفهي، فإننا نلجأ إلى نطق معين ونغمة معينة.

أو بالأحرى نجري على المواد اللفظية التي يوفرها النظام اللغوي اختياراً. وهذا الأخير لا يكون تبعاً لإدراك المرسل وإنما يكون تبعاً للإدراك الذي نتوقع أنه يكون لدى المرسل إليه اتجاه النص⁴¹.

4. مواطن الحجاج عند الجاحظ:

1.4 الشعر:

إن الجاحظ لم يقل الشعر ولكنه كان شاعراً، مستشهداً به ومعرّياً عنه باعتباره وسيلة بيانية الغرض منها التأثير في الآخرين، كقول الشاعر:

عجبت لأقوام يعيرون خطبتي وما منهم في موقف بخطيب

وقد تأثر بهذا البيت الذي يدلّ على أنّ قائله لم يتمكن من إيصال رسالته لعوائق ما تتعلق به كشخص أو كخطيب فاستهل بيته بفعل يدلّ على صيغة التعجب، والاندعاش لقوم ليسوا بخطباء وأعابوا الخطبة، والفعل يدلّ على الحركة مما حرك أحاسيس ومشاعر المتلقي، والجاحظ كان متلقياً، فأحسن وتذوق معاناة الخطيب الذي أفرّ بعجزه عن الإيصال والتبليغ فانبهر لما حدث له، فهو شخص له القدرة على التمهيص والتحليل وعلى علم بفن الخطابة، فكل حرف أو كلمة وردت إلّا ولها دلالتها الخاصة، والتي أفضت على البيت دلالة عامة.

وقال آخر:

جعل اللسان على الفؤاد دليلاً
حتى يكون مع اللسان أصيلاً

إنّ الكلام لفي الفؤاد وإنّما
لا يعجبك من خطيب قوله

وترك أثراً في الجاحظ حيث استهله بأداة نصب تفيد التوكيد، كما وظف التكرار "الفؤاد" و"اللسان" الذي يهدف إلى أنّ الفؤاد على علاقة مباشرة باللسان، فهذا الأخير آلة البيان، وهذا يبين تأثر الجاحظ بالشعر الذي يحمل رسالة فأخذه شاهداً ليؤثر في الجمهور المتلقي.

2.4 النشر:

كان الجاحظ ناظماً مؤلفاً بارعاً في نظم الجمل وترتيب الحروف، وواضحاً كلّ عنصر موضعه، تلمس الانسجام وحسن الاختيار، فخط فصولاً شريفة وفقراً رائعة وأخباراً "جاءت في ثنايا مؤلفاته من خطباء وأدباء وبلغاء، فمنح للنشر الفتي دفعاً جديداً، فجنبه الإطالة، وإذا كان في أغلب الأحيان يستطرد.

فالجاحظ كان يجادل في مواضيع لا يخشى المناظرات، يُعرب عن آرائه ويدافع عنها بالحجة والدليل القاطع، فغداً بذلك أدبياً فذاً وإماماً من أئمة البيان العربي، وصاحب مدرسة في فنّ الكتابة والتأليف ما زالت قائمة إلى يومنا هذا⁴².

وبذلك ساهم في بناء الفن القصصي العربي، يسخر تارة ويضحك تارة أخرى، باذلاً طاقته التعبيرية من أفانين الكلام، لأنّ في تلك الحقبة انحصر الكرم وشاع البخل.

وكنموذج فقد تأثر بقصة زبيدة بنت حميد الصيرفي⁴³ التي تخبرنا عن شحّه وبخله مما انتهى بالسخرية والاستخفاف من الرجل، فجاءت رسالته بألفاظ دالة محكمة موحية، وإيجاء اللفظة تثير في نفس المتلقي معان عديدة تبين حالة هذا الشخص. وإذا جئنا إلى التواصل من حيث التأثير والتأثير فنراه متأثراً بما حدث في زمنه، فكان يترقب الأوضاع باستغلال قدرته اللغوية على التبليغ، وثانياً أنّه أثر في المتلقي كونك تعيش العصر ذاته، وهذا يدلّ على نجاح الرسالة وتحقيق الهدف أو المقصدية، فلولا كتاباته لما عرفنا واقع مجتمعه الذي هو جزء من التاريخ.

ولذلك فالجاحظ كان يتعامل مع الحدث الكلامي على أنّه رسالة، تُبلّغ إلى مخاطب، ويعتمد على الخطاب القرآني الذي يعتبره النموذج المثالي لأنواع الخطاب العربي، فكان يترصد الحدث كما وقع فيأخذه على تلك الصورة أو المخرج أو تلك اللغة أو العادة⁴⁴.

وأثناء الحدث الكلامي يطرح الجاحظ قضية مثيرة وهي مناسبة الألفاظ، وذلك أنّ كلّ أمة تنطق بألفاظ تلائمها حتى تكون على بنية ودرجة من الفصاحة، وكان يرى في أسلوبهم صورة من البلاغة الواضحة: "أما أنا فلم أر قوماً قط أنبل طريقة في البلاغة من الكتّاب، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً"⁴⁵.

ويرى في اللفظ أن يتطابق مع المعنى: "ولكلّ صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها"⁴⁶ أي مناسبة المقام.

ولهذه الألفاظ صور تمّ خلقها تبعاً للحاجة: "فلكثر حاجاتهم كثرت خواطرهم وتصاريف ألفاظهم، واتسعت على قدر اتساع معرفتهم"⁴⁷ فكلّ ضرب من اللفظ ولكلّ نوع من المعاني نوع من الأسماء. والجاحظ يُقرّر بالسياق: "للمعاني دلالات وأسماء، فمن دلّ على المعنى بواحد منها، وباسم من أسمائها لم نسأله أن يوفينا الجميع وأن يأتي على الكلّ، ولم يلتفت إلى منع ما منع إذا كان الذي منع مثل ما أعطى"⁴⁸. والحدث الكلامي يقتضي مساراً تواصلياً كما هو عند bach وهارنيس barnish اللذان يوضّحان مسيرته ضمن دائرة الاتصال⁴⁹.

5. خاتمة:

وهكذا فالجاحظ بفكره العميق؛ قد تناول قضايا التداولية pragmatique من خلال مؤلفاته، وبالأخص البيان والتبيين متطرقاً إلى الحدث الكلامي وأفعاله وطرق تبليغه والسياق الذي ورد به، معتمداً في ذلك آلية البرهنة أو البلاغة وما يعرف بالحجاج. وعليه فالخطاب التداولي كان حاضراً عند الجاحظ من خلال استراتيجية التبليغ والتواصل ضمن الأفعال الكلامية المتباينة.

6. الهوامش:

- ¹ - فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علّوش، مركز الإنماء القومي، الزناط، 1986، ص22. 23.
- ² - المرجع نفسه، ص53. نقلاً عن: خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، بيت الحكمة، ط1، 2009، ص53.
- ³ - austin quand dire cest faire in trodution. Et commentaive. pavGille lane.édit. du Seuil. 1970.p13-14.
- ⁴ - فرانسواز، أرمينكو، المقاربة التداولية، ص15.
- ⁵ - ينظر: خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص64.
- ⁶ - ينظر: فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ص27.
- ⁷ - ينظر: خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص64.
- ⁸ - المرجع نفسه، ص65.
- ⁹ - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، ط2، 1991.
- ¹⁰ - تحريشي عبد الحفيظ، التداولية مفاهيم ومصطلحات، موقع اللسانيات والتربية.
- ¹¹ - طه عبد الرحمن، تحديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الزناط، المغرب، ط2، 2000، ص244.
- ¹² - فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ص41. 73.
- ¹³ - المرجع نفسه، ص41. 73.
- ¹⁴ - المرجع نفسه، ص41. 73.
- ¹⁵ - المرجع نفسه، ص41. 73.
- ¹⁶ - جميل صليبا، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانجليزية واللاتينية، ج2، دار الكتاب العالمي، 1994، ص235.
- ¹⁷ - ينظر: المرجع نفسه، ص234.

- 18 - ينظر: ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمة كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط2، 1997، ص36.
- 19 - ينظر: المرجع نفسه، ص39.
- 20 - ينظر: رجاء عيد، البحث الأسلوبي، معاصرة وتراث، منشأة المعارف بالإسكندرية، 1993، ص96.
- 21 - ينظر: ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ص39.
- 22 - ينظر: المرجع نفسه، ص55. 56.
- 23 - ينظر: المرجع نفسه، ص70. 71.
- 24 - ينظر: ميشال عاصي، مفاهيم الجمالية والتّقد في أدب الجاحظ، مؤسسة نوفل، بيروت، ص42.
- 25 - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص80.
- 26 - المصدر نفسه، ج3، ص367.
- 27 - الجاحظ، رسائل الجاحظ، الرسائل الأدبية، دار مكتبة الهلال، ط2، 1991، ص301.
- 28 - ينظر: محمد كراكي، مفهوم الخطاب الشعري في التراث النقدي العربي القديم، مجلة التواصل، العدد04، جوان1999، ص27.
- 29 - الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ج1، ط7، 1998، ص67.
- 30 - المصدر نفسه، ج1، ص139.
- 31 - ينظر: أحمد عطية سليمان، الجاحظ والدراسات اللغوية، دار الفردوس، 1995، ص69. عن التطور اللغوي، رمضان عبد التّواب، مطبعة الخنجي، القاهرة، 1990، ص30.
- 32 - البيان والتبيين، الجاحظ، ج1، ص272.
- 33 - المصدر نفسه، ج1، ص271.
- 34 - ينظر: محمد الصّغير بناني، التّطريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983، ص71.
- 35 - ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تح: محمود محمد شاكر أبو فهر، مكتبة الخانجي، مصر، د.ط، د.ت. ص441.
- 36 - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص75.
- 37 - Judith Lazar ,voir La science de la communication.1^{er} edition 1992 .p 18.
- 38 - Noom chomsky, voir Syntactic Structures. Montan publishers the hagne. Paris. Newyork.1975. p 13.
- 39 - البيان والتبيين، الجاحظ، ج1، ص145.
- 40 - المصدر نفسه، ص145. 146.
- 41 - ينظر: رجاء عيد، البحث الأسلوبي، معاصرة وتراث،
- 42 - ينظر: ولد يوسف مصطفى، الجاحظ وطه حسين (نشأة وفكر وأسلوباً)، ص09.
- 43 - ينظر: الجاحظ، البخلاء، تقديم: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت، 2003، ص34.
- 44 - ينظر: الجاحظ، الحيوان، تح: عبد السلام محمد هارون، دار مصطفى البابي الحلبي، مصر، مج1، ط2، 1965، ص186.
- 45 - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص137.
- 46 - الحيوان، الجاحظ، ج3، ص175.
- 47 - المصدر نفسه، ص270.
- 48 - عطية سلمان أحمد، الجاحظ والدراسات اللغوية، ص76. الجاحظ ج4، ص06.
- 49 - مصطفى حميدة، نظام الارتباط والرتب في تركيب الجملة العربية، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1997، ص18.

7. قائمة المراجع:

1. الجاحظ، البخلاء، تقديم: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت، 2003.
2. الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ج1، ط7، 1998.

دراسة الخطاب التداولي عند الجاحظ في ضوء نظرية الاتصال والتّبلغ معزوز خيرة

3. الجاحظ، الحيوان، تح: عبد السلام محمد هارون، دار مصطفى الباي الحلبي، مصر، مج1، ط2، 1965.
4. الجاحظ، رسائل الجاحظ، الرسائل الأدبية، دار مكتبة الهلال، ط2، 1991.
5. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تح: محمود محمد شاكر أبو فهر، مكتبة الخانجي، مصر، د.ط، د.ت.
6. ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، ط2، 1991.
7. أحمد عطية سليمان، الجاحظ والدراسات اللّغوية، دار الفردوس، 1995.
8. تحريشي عبد الحفيظ، التداولية مفاهيم ومصطلحات، موقع اللّسانيات والتربية.
9. جميل صليبا، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانجليزية واللاتينية، ج2، دار الكتاب العالمي، 1994.
10. خليفة بوجادي، في اللّسانيات التداولية، بيت الحكمة، ط1، 2009.
11. رجاء عيد، البحث الأسلوبي، معاصرة وتراث، منشأة المعارف بالإسكندرية، 1993.
12. ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللّغة، ترجمة كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط12، 1997.
13. طه عبد الرحمن، تحديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الرباط، المغرب، ط2، 2000.
14. عطية سلمان أحمد، الجاحظ والدراسات اللّغوية، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، مصر، ط1، 1998.
15. فرانسوار أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علّوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، 1986.
16. محمد الصّغير بناني، التّطبيقات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983.
17. محمد كراكي، مفهوم الخطاب الشعري في التراث التّقدي العربي القديم، مجلة التّواصل، العدد04، جوان1999.
18. مصطفى حميدة، نظام الارتباط والرّبط في تركيب الجملة العربية، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1997.
19. ميشال عاصي، مفاهيم الجمالية والتّقد في أدب الجاحظ، مؤسسة نوفل، بيروت، ط2، 1981.
20. ولد يوسف مصطفى، الجاحظ وطه حسين (نشأة وفكرًا وأسلوبًا).
21. Judith Lazar , voir La science de la communication.1^{er} edition 1992 .
22. austin quand dire cest faire in troduction. Et commentaive. pavGille lane.édit. du Seuil. 1970.
23. Noom chomsky, voir Syntactic Structures. Montan publishers the hagne. Paris. Newyork.1975.